قال : هيهات ! إنه تكلم بكلام علوى ، كنا نحسّ به ينصب فى القلوب انصباباً فتستشرفه وتتسامى إليه ، وما زال يقول وهى ترتفع حتى خلصت من هذه الحمأة الدنسة التى كانت غارقة فيها ، إلى الفضاء الأرحب وإلى الجوّ الطهور . إنه لم يتكلم كما أتكلم أنا وأنت ، ولا كما كان (هو) يتكلم ، فقد سمعته قبل ذلك اليوم ، فما سمعت منه مثل هذا ، وإنى لأظنّ أن ملكا نطق بلسانه فمن هنالك خرج الكلام نورانياً سماوياً .

قلت : مثل ماذا ؟

قال : أنا رجل عامى ، فاذا أعدته عليك لم آت به من ذهنى الكليل إلا أرضياً منطفئاً ، كالشهاب المنير إذا روثته الأرض لم يكن على لسانها إلا صخرة باردة جامدة ... أفتحب أن أردّ عليك ماحفظت منه من ذهنى أنا لا من ذهنه ، وبلسانى لا بلسانه ؟

قلت : نعم .

قال : إن مما حفظت منه قوله ...

( البقية تأتى )

**على الطنطاوى**

---

الإنسان ، هذا المجهول . .

# الدوافع البيولوجية وأثرها (*)

للأستاذ فؤاد عوض واصف

كانت ظاهرة التقليد التى قال بها العلامة تارد فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، هى التفسير الوحيد عند علماء الاجتماع للحياة الاجتماعية ؛ فظهور فرد قوى أو قائد شجاع أو مشرع كبير فى مجتمع ما يمكن من خلق عرف جديد ينتشر بين الناس انتشار النار فى الهشيم . ذلك لأن الناس على دين ملوكهم وحكامهم وقادتهم ، يقلدون تقليداً أعمى كل ما يبتدعه رؤساؤهم[1] ، ولقد ملك تارد بتفسيره هذا عقول العلماء ردحاً كبيراً من الزمن إلى أن ظهر العلامة الأمريكى الأشهر ماكدوجل ، فطلع علينا بتفسير جديد هو على خلاف فيه مع نظرية تارد ؛ وقد عرفت نظرية تارد بنظرية الدوافع . ولئن كانت معرفتنا بالدوافع قديمة قدم أرسطو ، فإن الاهتمام بها لم يبلغ الحد العظيم الذى بلغته بعد أبحاث ماكدوجل . لقد كشف لنا ماكدوجل فى أبحاثه عن أثر الدوافع البيولوجية فى الإنسان وأسرارها العظيمة ونتائجها العديدة ، حتى لقد رد الحياة الاجتماعية كلها إلى هذه الدوافع البيولوجية الكامنة فى الإنسان ، ومن هنا كان أن عرف بأبى علم النفس الاجتماعى .

وقد كان من أثر أبحاث ماكدوجل فى الدوافع أن ظهرت فى معامل علم النفس مقاييس لقياس الحوافز والدوافع بطريقة دقيقة كل الدقة حتى لقد مكنتنا من معرفة درجات القوة والضعف فى الدوافع العضوية الداخلية معرفة يسرت لنا تفسير أنواع الانحرافات النفسية والجنسية والاجتماعية أيضاً ؛ فالسلوك الإنسانى يرد فى النهاية إلى الدوافع الداخلية ، كما هو الحال مثلا فى سن البلوغ ، إذ يشاهد أن تولد الميل الجنسى ناتج عن دافع عضوى ، وهذا الميل الجنسى يقترن بتغيرات فى الهيئة والسلوك ، فيميل البالغ إلى الحياة الخيالية كما هو معروف فى الحب الصبيانى .

ويمكن تعريف الدافع العضوى بقولنا « هو كل حافز يدفع إلى فعل يتحول بالتحليل إلى حالة تنبيه ، تثير الفرد وتدفعه إلى سلوك ما عن طريق مجموعات خاصة من العقد العصبية !!

ومن أهم الدوافع الداخلية ، إفرازات الغدد الصماء التى تثير النزعات والميول والرغبات ، وتحمل الشخص أن يقوم بحركة وأن يسعى نحو تحقيق الميل وإشباعه بطريقة أشبه بأن تكون آلية جبرية .

ولكل دافع من الدوافع العضوية الداخلية استجابات خاصة به تختلف من دافع إلى آخر ، فللدافع الجوع والعطش استجابات تختلف عن استجابات الدافع الجنسى مثلا .

والدافع الجنسى من أمثلة الدوافع الكيميائية التى تتمثل فى إفرازات غدد خاصة موجودة فى الإنسان . وكل أنواع الاستجابات والسلوك الجنسى هو نتيجة ترد فى النهاية إفراز الغدد التناسلية . فقد أثبتت التجارب العديدة أن عملية استئصال الإفراز الجنسى من الخصيتين Testes أو المبيض Ovaries يقضى على الميل الجنسى ، فى حين أن تجديد هذا الإفراز يعيد الميل الجنسى إلى حالته الطبيعية ؛ فكان الاختلاف بين الذكر والأنثى فى

---

(*) شرح نظرية التقليد فى بحثنا فى الرسالة عدد ٦٢٣

السلوك الجنسي يرد إلى اختلاف الغدد فحسب ؛ والرجل والمرأة لا يختلفان فى تكوينهما ، وما السمات المميزة لكل منهما إلا أثر بل استجابة لإفراز معين تفرزه غدة تناسلية تختلف فى الذكر عنها فى الأنثى . وإنه لمن السهل علينا الآن أن نجعل من الدجاجة ديكا ، ومن الديك دجاجة تقريباً ، وذلك بعملية استئصال غددى فتتحول الدجاجة إلى ديك وتفقد كل سماتها الأولى وتصبح ذات عرف يأخذ فى النمو ، وينقلب سلوكها ولا يمكن تمييزها فى النهاية من ديك آخر . وكذلك الحال إذا أردنا أن نجعل من الديك دجاجة فما علينا إلا استئصال الخصيتين فيفقد الديك عرفه ويتسم بكل سمات الدجاجة وسلوكها .

ولا يقتصر تأثير الدافع العضوى على الهيئة والتكوين الفسيولوجى فقط ، بل أيضاً فى اتجاه السلوك والأخلاق ؛ ويمكن أن نوضح هذا جيداً بحالة بعض الأفراد الذين يتأخرون فى بلوغهم Prematureg ، نجد الواحد منهم فى سن العشرين مثلا وكل مظاهر الرجولة معدومة فيه لا فى المظاهر الفسيولوجية فحسب ، بل أيضاً فى السمات الخلقية ، ففيه نجد حياء الأنثى وخوفها ومرونتها وما إلى ذلك . فإذا عولج هذا الشخص المتأخر فى بلوغه بواسطة خلاصة الخصيتين Drcbic supstances لايلبث بعد مدة يطول زمنها أو يقصر ، حسب حدة الحالة ، أو يصبح وقد ظهرت عليه سمات مختلفة عن ذى قبل ، فيرتفع صوته ويتضاءف نشاطه ويزول الخجل منه والخوف وما إلى ذلك من مظاهر الأنوثة الأخلاقية ، ويتولد فيه الميل الجنسى . ومن هنا يظهر لنا ، أن سمات الرجولة والأنوثة سواء كان ذلك من الناحية الفسيولوجية أو الخلقية إنما يرد فى النهاية إلى الدافع الكيميائى وهو إفراز الغدد التناسلية .

والآن إذا أردنا أن نحصى الدوافع فى الإنسان بسائر أنواعها فإننا سنجدها من الكثرة بحيث يصعب معها العد والحد ؛ فإن دافعاً كدافع الجوع العضوى قد يبدو بسيطا مع أنه مركب من عدة دوافع : فالحاجة إلى الأكل ، تتضمن الحاجة إلى مواد سكرية ونشوية ودهنية الخ ، ودافع العطش ليس هو الحاجة إلى الماء فحسب ؛ لأننا إذا أعطينا عاملا مجهدا فى يوم قائظ ماء ساخنا ليرتوى ، فإنه بذلك لن يرضى دافع العطش ، لأن الحاجة هنا تتضمن غير الماء ، درجة خاصة من الحرارة وغيرها . ومن هذا يبدو أن دافعاً واحداً كدافع الجوع أو العطش يتضمن فى ذاته عدة دوافع . من أجل ذلك فإن إحصاء عاماً للدوافع كما أراده ديكارت وهو يز يعد ضربا من المستحيل ، إذ أن الحاجات تتعدد ، وبالتالى تتعدد الدوافع المولدة لهذه الحاجات . وعمل الدوافع فى الإنسان يقترن بتغيرات كيميائية وعضوية فى جميع أنحاء الجسم حتى فى البشرة . ويظهر ذلك بوضوح فى حالة الحب مثلا الذى هو إرضاء للدافع الجنسى . وتعمل الدوافع على أن تلائم بين الإنسان والطبيعة ، فقد يبدو أن لون البشرة السوداء عند زنوج المناطق الاستوائية ناتج فى الأصل عن تأثير حرارة الشمس المحرقة ، مع أنها نتيجة لأفعال منعكسة قامت بها خلايا البشرة لإرضاء دافع الحاجة إلى درجة حرارة مناسبة للجسم ؛ فليست الحرارة هى التى تحرق البشرة ، لكونها حرارة ، بل هى تقوم فقط مقام الباعث لاستجابات ناتجة عن دوافع وحاجات ، أعنى فى هذه الحالة أن هنالك دافعا فى الإنسان قد اقتضى تغيرات فسيولوجية حتى يتم التوافق بين الإنسان فى نزوعه إلى الحياة وبين الطبيعة الخارجة عنه .

ونريد هنا أن نلفت النظر إلى أنه فى كثير من الأحوال يكون المنبه الخارجى هو المحرك للدافع إذا كان فى حالة كمون . فإذا كنت فى وقت ما جائعاً وكان دافع الجوع فى كمون لانشغالى بأفكار وخواطر ، فإن الساعات تمر بدون أن يتعدى الدافع العضوى حدود الشعور ؛ فإذا فرضت أن رائحة شهية لطعام قد وصلتنى وشغلت شعورى برهة من الزمن ، كان هذا المنبه كافياً لتحويل الحاجة إلى الطعام من حالة الكمون إلى حالة النشاط أى إلى رغبة ، وكذلك الحال فيما يختص بالدوافع الأخرى .

وقد سبق أن ذكرنا أن إحصاء عاماً للدوافع ضرب من المستحيل ولكن يمكن أن نقسم الدوافع إلى أنواع أربعة :

١ — دوافع عضوية : كدافع الجوع والعطش الخ ...

٢ — دوافع كيميائية : كالدافع الجنسى ودافع التعب . هو عبارة عن بعض السموم تكونت فى دم الإنسان فأوجدت فيه حالة التعب . والذى يثبت لنا أن التعب ومظاهره ليس نتيجة مباشرة لمجهودات عضلية التجربة التى قام بها عالم نفسانى كبير . وتتلخص فى أنه حقن كلبا لم يقم بأية عملية إجهادية بدم كلب

ظل طوال اليوم يرافق سيده فى الصيد ، فكانت النتيجة أن ظهرت فى الكلب السليم كل مظاهر التعب والإنهاك الموجودة فى الكلب التعب . فكأن التعب ومظاهره نتيجة لعامل كيميائى موجود فى الدم وهو سموم أشبه ما تكون بالسموم المعروفة ، ومن هذا يبدو أن التعب ومظاهره استجابة لدافع كيميائى موجود فى الدم .

٣ — دوافع نشاط « Activity Drives » وتكون ذات استجابات مناسبة تتلاءم مع ما يحيط بالإنسان من ظروف .

٤ — دوافع الجمال : مثل أن تظهر فى استجابة الطفل الصغير لما يحيطه من ألوان وموسيقى ذات مقاطع ، تجذبه إلى أن يسلك سلوكا معينا ، هو استجابة ساذجة لما يحيط به من جمال . كذلك الحال فى البالغين لقد ركب فينا دافع للجمال ، امله الروح تنزع إلى الجمال وتستجيب له كما ينزع الأليف إلى أليفه ويستجيب له . وفى السجون الحديثة يعالج المجرم بسماع الموسيقى وبإحاطته بألوان من الجمال تستجيب لها نفسه فيبعث بعثا ويعود إنسانا .

لقد ذكرنا من الدوافع ما هو عضوى وكيميائى ونشاطى وجمالى ؛ بقى نوع خامس من الدوافع يستجيب للمؤثرات الفجائية العنيفة كالخوف والغضب والبغض والعار . وتسمى هذه المجموعة من الدوافع بالإنفعال Motion .

والدراسات العلمية الكثيرة فى مجال علم النفس المقارن ، حققت لنا وجود ظاهرة الإنفعال عند الكثير من الحيوانات ، مع ملاحظة خاصة ، وهى أن الإنسان كثيراً ما يخضع انفعالاته ويوجهها توجيهاً خاصاً ، فى حين أن الحيوان ينفعل فلا يكاد يملك أسباب التوجيه أو اخفاء انفعالاته .

وقد قامت مشكلة كبيرة فى علم النفس خاصة بالإنفعال وتتلخص فى هذا السؤال : هل انفعل أولا ثم اضطرب أم اضطرب أولا ثم انفعل ؟ والرأى الصحيح عند وليم جيمس هو أن الإنسان يضطرب أولا ثم ينفعل ، أعنى أن الإنفعال فى ذاته هو نتيجة لاضطرابات عضوية وكيميائية فى جسم الإنسان . ففى حالة الخوف مثلا ، تحدث فى داخل الجسم افرازات عضوية معينة ، تكون نتيجتها ظهور سمات الخوف على الإنسان . وبكلمة مختصرة ، الإنفعال فى أساسه فسيولوجى قبل أن يكون نفسانيا .

وهنالك ثلاثة أنواع من الانفعالات الأولية فى الإنسان وهى الخوف والغضب والحب . والظواهر المختلفة التى تبدو على الإنسان نتيجة لهذه الانفعالات نتيجة لإفرازات معينة فى الغدد الصماء بتأثير الجهاز العصبى .

أما انفعال الخوف فينتج شعوراً رديئا ؛ فبالإضافة إلى ما يثيره من الاضطراب فى بعض أجهزة الجسم كما يكون الحال فى سرعة دقات القلب والتنفس السريع ، بالإضافة إلى ذلك يكون للخوف طابع خاص يظهر فى امتقاع الوجه واضطراب المفاصل والأطراف وتفوف شعر الرأس ... الخ ... وللغضب مظاهره الخاصة كذلك وهى فى جلتها أقل عنفاً من مظاهر الخوف ، وفى حين تكون نتيجة الخوف تقهقرا تكون نتيجة الغضب تقدما واندفاعا . أما الحب فهو أحد الانفعالات الأولية التى تحدث شعوراً طيبا محببا . والذين جعلوا للحب مركزاً خاصا فى القلب لم يبتعدوا كثيرا عن الحقيقة . فانفعال الحب فى الواقع يتركز أثره فى جهة ما فوق القلب نتيجة لتأثر الدورة الدموية بباعث الحب وما يثيره فى الدورة من نشاط . وللحب طابعه الخاص ، يظهر فى ابتسامة الفم وإشراق الوجه ، ولعل أروع صورة ساذجة لطابع الحب الجميل ، تظهر فى محيا الطفل الصغير وهو يرنو إلى أمه .

* * *

هذه المعرفة الخاصة بالدوافع ، قادتنا إليها دراستنا للحيوانات الدنيا وللطفل وللانسان البدائى .

وإن دراستنا للانسان البدائى الساذج ، تجعلنا نقف أمام صورة كائن يمضى أغلب وقته فى الأكل والشرب مبتعدا عن الأصوات المزعجة والحرارة اللافحة ، يجرى ويقفز ، يصيح وينصت ويتأمل ويشاهد أنه مدفوع إلى النشاط بما يمثله الكون المحيط به ؟ قد يجد لذة فى أن يداعب كلبه أوفى أن يقفز على شجرة ، كل هذه الاستجابات تتولد من الكون الفسيح وما يبعثه من مؤثرات ومنبهات . وإنه لمن الانصاف أن نقرر ما ذكره ثورنديك من أن قائمة الدوافع التى قال بها ديكارت وهوبز لا تصور الحقيقة ، فإن الدوافع فى الانسان والحيوان من الكثرة بحيث يختلط بعضها ببعض ، وإن حيل الحيوان وحتى

أبسطها فى السعى لرزقه ، تجعلنا نقرر بأن احصـاء عاما للدوافع ضرب من المستحيل .

* * *

هذه هى الدوافع ، وهذا موضوعها . والانسان فى سعيه إلى رزقه وفى سعيه إلى الحياة ، إنما يستجيب إلى الدوافع التى ركبت فيـه تركيبا . ولو شئنـا التطرف لقلنا مع ميرفى Murphy ونيوكب Neucomb ، إن الانسان ليس شيئا آخر غير الدوافع التى ركبت فيه وجاءته عن طريق الوراثة ، ومن هنا يكون الانسان فى هيئته وجسمه وسلوكه الأخلاقى ، مدفوعاً بدوافع داخلية لا قبل له بردها . فالحب تبعـاً لهذا ليس إلا استجابة لإفراز الغدد الصماء ، والاجرام فى بعض الأفراد ليس إلا استجابة طبيعية لتـكوين المجرم الجسمانى الذى أتاه عن طريق الوراثة . إن الدوافع الداخلية فى الانسان هى التفسير الوحيـد لحياته الجسمية والأخلاقية . ومن هنا لا يكون الانسان مخيرا بل مسيرا ولا يـكون للتربية مجال كبير أو صغير فى توجيهه وتهذيبه .

وهكذا يذهب ميرفى ونيوكب ومعهما جمهرة من العلماء ، ويقولون بنوع من القدرية Fatalism فى تقرير الـكائن الحى ، إن كان سيولد إنساناً أم فأراً أم عصفوراً ، إن كان سيولد بمنقار أو بشفتين ، بأربع أرجل أم برجلين . فاختلاف الـكائنات الحية عندهم نتيجة لاختلاف الدوافع التى وهبت للـكائن الحى قضاء وقدراً . وكذلك الحال عندهم فى اختلاف الأفراد بعضهم عن بعض ، فليس هذا إلا نتيجة لاختلاف الدوافع فحسب . ولئن زعم الناس بمرونة الإنسان وقبوله للتشكل والإصلاح ، فلينظروا إلى هذا الاختلاف البين بين الأفراد بعضهم وبعض فى نموذج كل مجتمع . أجل إن هذا الاختلاف لكثير ، ومجموعة من الـكلاب الصغيرة يمـكن أن ترمز إليه كما ترمز إليه مجموعة من الأطفال فى معهد خاص .

ليست هنالك إذن مرونة فى الإنسان أو قابلية للتشـكل فى نظر تلك الفئة من العلماء ، فالإنسان يستجيب للمؤثرات المحيطة به كما يستجيب لها الحيوان .

وكذلك يذهب أيضاً العلامة لبروزو Lombrozo أستاذ القانون الجنائى فى جامعة روما ؛ فهو يرى أن الجريمة فرع من القضاء والقدر لا دخل لحرية الإنسان فيه ؛ فالمجرم يولد مجرماً بالطبيعة Ciminel par naturc وإنه لمن التعسف أن يعاقب المجرم عن شىء لا يملك فيه اختياراً أو مشيئة . وليس فى الإمكان إصلاح مجرم ولد هـكذا ولا تجدى فيه التربية أوالتوجيه الحسن .

وقد خصص لبروزو لشرح نظريته كتابين شهيرين هما : كتاب الرجل المجرم L' homme criminel ، والمرأة المجـرمة La fcmme criminel ، فالمجرم عند لبروزو ذو تـكوين خاص فى هيئته وكذلك سائر المجرمين ، وما الجريمة إلا استجابة لتـكوينهم العضوى الناقص الذى جاءهم عن طريق الوراثة . وكثير من اتجاهات علم النفس الجنائى إلى يومنا هذا تستلهم موضوعاتها من بحوث لبروزو .

ولـكن البحوث التى قام بها علماء الأحياء منذ ربع قرن فى موضوع الوراثة وكذلك علماء السلوك الإنسانى ، وخاصة فى دراساتهم لأنواع الشذوذ والانحرافات ، أدت إلى الإقلال من حتمية الوراثة ، وأثبتت مرونة الإنسان وقابليته للتشكل والاصلاح ، فسلوك الإنسان قابل للتغير والتحسن ، ويتوقف نجاح التربية إلى حد كبير على إحكام طرقها وإتقان أساليبها .

ليس الإنسان إذن أسير وراثة أو تـكوين عضوى خاص كما كان شائعاً من قبل ، بل إنه يملك إلى حد كبير أسباب التغير والإصلاح . لا يوجد هنالك ما يسمى طبيعة مجرمة فى النفس الإنسانية ؛ بل على العكس من ذلك ، إن طبيعة النفس الانسانية كما يقول كانت خير وكل الخير ، وإنما هنالك نفوس مريضة تدافع عن توازنها الاجتماعى ، فتضل فى المعترك عن الطريق السوى .

إن للدوافع فى الإنسان كما سبق وذكرنا شـأنا كبيرا ، ولـكنها فى الإنسان غيرها فى الحيوان . لا ، بل إن الحيوان نفسه قابل للترويض وللائتلاف ، فكم يكون الحال فى الإنسان وفيه من نور الله قبس ! أوليس فيما وصل إليه علم التربية والنفس أكبر الدليل على مرونة الإنسان وعلى كونه يختلف اختلافا بينا عن سائر الـكائنات بما وهبه الله من عقل يفـكر ويتذكر ؟ إذا فللدوافع فى الإنسان شأن كبير ولـكنه أقل من أن يجعل الإنسان مسيرا لا مخيرا .

فؤاد عوض واصف
ليسانسيه فى العلوم الفلسفية